

## ضمائر الشعراء



محمد أمين  
أبو بكر

يدفعهم إلى تزويد الموتى بالأموال  
والأمتعة مما يحتاجون إليه في  
قبورهم. وعندما عرف الناس ذلك بعد  
قرون عديدة أخذوا ينيشون القبور  
لاستخراج ما فيها، وبينما كان أحد  
المنقبين بهم يفتح أحد القبور وجد  
حجراً على بابه مكتوباً عليه (لقد عشت  
مئة سنة وقتلت مئة مبارز، وركبت  
مئة فرس وتزوجت مئة فتاة وانتزعتني  
الموت رغم أنفي). وكانما لسان حاله  
يقول: فاعتبروا يا أولي الألباب،  
وتنبهوا إلى أهمية الخير وخطورة  
النشر وضرورة المعروف بين الناس.

كما كان للتفكير والتأمل أثر كبير في  
فلسفة أبي العلاء المعري حيث توجه  
إلى الإنسان محذراً منذراً منبهاً إلى  
حقيقة لا يجوز له أن يجهلها أو يغفل  
عنها فقال:

خفق الوطأ ما اظن اديم  
الأرض إلا من هذه الأجساد.  
رب لحد قد صار لحداً مراراً  
ضاحكاً من تراحم الأضاد  
سر إن اسطعت في الهواء رويداً  
لا احتيالاً على رفات العباد  
أما أبو نواس شاعر الفجور  
والمجون ورجل الانحراف والعبث  
والسقوط فلم يستطع أن يتحرر من  
صحوة الضمير ويقظة الفطرة في  
أعماقه، فكتب يقول في لحظة صدق مع  
نفسه وربه:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة  
فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
إن كان لا يرجوك إلا مؤمن  
فبمن يلوذ ويستجير المجرم

ونبهت الفطرة في أعماقه فقال مشيراً  
إلى الدنيا وتعلق الإنسان بها:  
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى  
لك الطول المرض وتنايه باليد  
أرى العيش كثرأ ناقصاً كل ليلة  
وما تنقص الأيام والدهر ينفد  
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى  
عقيلة مال الفناحش المتشدد  
وهكذا تأمل الشاعر الذي ودع الدنيا  
في ريعان شبابه حقيقة الحياة وأدرك  
أنها حلم وينتهي وأن عليه أن يتهيأ  
لاستقبال الموت استقبالاً يتناسب مع  
ما توصل إليه من علم ومعرفة.

وهذا عنترة بن شداد وقف يدعو من  
خلال موقف عملي إلى سلوك يجدر بكل  
إنسان أن يلتزم به وأن يتخذ شعاراً  
له في حسن الجوار واحترام مشاعر  
الآخرين حيث يقول:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي  
حتى يوارى جارتى مثواها  
الطائي

أما حاتم الطائي الذي ذاع صيته  
وعمت شهرته الآفاق فيضع نفسه  
الأمين المؤمن في سلوكه وعلاقاته  
الاجتماعية في دعوة واضحة إلى  
الالتزام بها عندما قال:

فاقسمت لا أمشي إلى سر جارة  
مدى الدهر مادام الحمام يغرد  
ولا أشتري مالا بغدر علمته  
إلا كل مال خالط الغدر أنكد

كما تذكر الروايات التاريخية أن  
الجرهمة الذين سكنوا مكة قبل الإسلام  
وتزوج منهم إسماعيل عليه السلام  
كانوا يؤمنون بالحياة داخل القبر مما

يفتح الإنسان عينيه على الدنيا  
فتبهره زينتها وزخارفها وتستهويه  
ملاذاتها وشهواتها وما فيها من متاع،  
تدغدغ آماله وأمانيتها، وتداعب عواطفه  
ومشاعره الأحلام البراقة أمام عينيه  
هنا وهناك، فترى الإنسان كثيراً ما  
يطلق لسفنه العنان لتفرد أشرعتها في  
بحار الهوى وتسير معه حيثما سار.  
ومهما أغرق الإنسان في البعد عن  
جادة الصواب والانحراف عن طريق  
الحق يبقى وميض الضمير حياً متيقظاً  
ينتظر اللحظة المناسبة التي يرى  
الإنسان الدنيا فيها بعيني الفطرة التي  
خلقها الله عليها فتبدو أمامه سراباً  
خادعاً لا يلبث أن يتلاشى، وعندها  
يقول كلمته فيقرع بها أبواب النفوس  
الضائعة، ويبرق أمام العيون  
التائهة، ويرعد في أسمع الخلائق  
الغافلة عله يستطيع أن يحملها على  
إعادة حساباتها والتوجه إلى المسار  
الصحيح فهذا الشاعر الجاهلي طرفة  
ابن العبد الذي عاش حياته في ظلمة  
لم تشرق فيها شمس الإسلام وقف في  
لحظة تأمل وتفكير أيقظت ضميره



مالي إليك وسيلة إلا الرجا  
وجميل عقوك ثم اني مسلم  
الأندلسيون

وبما كان الأندلسيون في غمرة  
اللهو والتمتع بطيبات الدنيا وملذات  
الحياة وبما متع الله به بلادهم من  
سحر وروعة وجمال وقف أحد  
شعرائهم في لحظة استشعار عظمة  
الله وقال:

إن لله عباداً فطناً  
طلقوا الدنيا وخافوا الفتناً  
نظروا فيها فلما علموا  
أنها ليست لحي وطننا  
جعلوها لجة واتخذوا  
صالح الأعمال فيها سفناً  
الإبيري

أما أبو إسحاق الإبيري فقد جعل  
شعره وأديه موقوفاً على هذا الدعوة  
مسخرأ كل ديوانه لذلك ومنه قوله:  
تفتت فؤادك الأيام فتاً  
وتنحت جسمك الساعات نحتاً  
وتدعوك المنون دعاء صدق  
الأيام صاح أنت أريد أننا  
تنام الدهر وبحك في غطيط  
بها حتى إذا مت انتبهتاً  
وها هو في مكان آخر ينبهه إلى  
حقيقة الحياة محذراً من الركون إليها  
والجري وراء متاعها والاعتزاز بسرابها  
في محاولة للأخذ بأيدي المنصتين  
المتثلين إلى طريق الحق وجادة  
الصواب حين قال:

وظف البلاد لكي ترى آثار من  
قد كان يملكها من الأقبال  
عصفت بهم ريح الردى فذرتهم  
ذرو الرياح الهوج حقف رمال  
وتزلزلت بهم المنابر بعدما ثبتت  
وكانوا فوقها كجبال  
وإذا أتيت قبورهم فاسألهمو  
عما لقوا فيها من الأهوال  
من لا يراقب ربه ويخافه  
تبت يده وماله من وال  
وعندما أفل نجم المسلمين من

الأندلس وتوارت شمسهم وراء سحب  
الضلال وجبال الحقد الصليبي الزاحف  
وقف أبو البقاء الرندي يرسم صورة  
المناسة رسماً يقدم فيه صوراً مرعبة  
يندى له جبين الإنسانية ويهتز لها  
ضمير الكرامة البشرية مبيناً فيه  
طبيعة الحياة الدنيا وتقلباتها من حال  
إلى حال فقال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان  
فلا يغر بطيب العيش إنسان  
هي الأمور كما شاهدتها دول  
من سره زمن ساءت له أزمان  
وهذه الدار لا تبقى على أحد  
ولا يدوم على حال لها شان  
أما أبو الحسن التهامي فقد أجاد  
وأفاد في حديثه عن الدنيا وفلسفته  
لها حين قال إثر محنة شديدة ألمت به:  
حكم النية في البرية جاري  
ما هذه الدنيا بدار قرار  
بينما يرى الإنسان فيها مخبراً  
حتى يرى خبراً من الأخبار  
جبلت على كدر وأنت تريدها  
صفواً من الأقداء والأكدار  
شوقي

وفي العصر الحديث وقف أمير  
الشعراء شوقي ورغم كل ما عرف عنه  
من ترف وبذخ وحياة رغيدة يعوم فيها  
فوق بحر من متاع الدنيا وقف إبان  
رحلة مع أصدقائه يمتعون فيها الطرف  
بجمال الطبيعة وسحر الخضرة  
وروعة الورود والأزهار وقال:  
تلك الطبيعة قف بنا يا ساري  
حتى أريك بديع صنع الباري  
الأرض حولك والسماء اهتزتاً  
لروائع الآيات والآثار  
من كل ناطقة الجلال كأنها  
أم الكتاب على لسان القاري  
من شك فيه فنظرة في ملكه  
تمحو أثيم الشك والإنكار  
كما وقف شاعر يتأمل الحياة  
وتقلباتها والزمان وصروفه والأيام  
وتلونها فقال عن الزمان:

وأعمارنا بين أيامه  
كقمح عليها الرحايا تدور  
فندهب من صخب هذي الحياة  
لتحضننا صامتات القبور  
فكم أحرص الدهر شحرورة  
تغنت زماناً على الرابية  
وكم أذبل الدهر روضاً نضيراً  
فأمست فرشاته باكية  
وكم جفف الدهر ماء الغدير  
وماء الينابيع والساقية  
وكم أمة قيل أخرى مضت  
وكم أمة بعدها آتية  
وقد راع أحد الشعراء مشهد مجموعة  
من أقربائه وأصدقائه يتخطفهم الموت  
واحداً بعد آخر مما جعل الحيرة تتحكم  
به فاندفع يقول:

أي سر حائر تلك الحياة  
ضل في طياتها العقل وتاه  
أنا فيها غارق في لجة  
وسط بحر غاب عني شاطئاه  
وسفيني مزقها صرصر  
وطواها اليباس في جوف المياه  
فتعلقت بلوح سابع  
لا أنا ميت ولا نقت النجاة  
وانسي الرعب يكوي خاطري  
وصديقي الهول تدعوني يده  
إلى أن يقول في أواخر القصيدة:  
هبك يا صاح بلغت المنتهى  
وسلبت النجم أسرار ضياه  
وعضبت الدر من أصدافه  
وتربعت على عرش وجاه  
أثرى ما أنت فيه مانعاً  
عنك عزرائيل يجتث الحياة  
فأبك أيامك واعراف سرها  
إن خلف الموت أشواك الوفاة  
ولا يسعنا ونحن نتأمل ما جادت به  
قرائح مجموعة من الشعراء في مختلف  
العصور وهم يحاولون تنبيه الإنسان إلى  
الحقيقة التي لا ينبغي أن تغيب عن باله  
لحظة إلا أن نستحضر الأثر القائل: (اعمل  
للدنيا بقدر مقامك فيها واعمل للأخرة بقدر  
بِقائك فيها واعمل لله بقدر حاجتك إليه  
واعمل للنار بقدر صبرك عليها) □